مجلـــــة العلـــــوم التربـــــوية والدراســـــات الإنســـــانيـــة
ISSN: 2709-0302 (online)
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2617-5908 (print)

التَّجْرِبةُ الزُّهْدِيَّة وتَجَلِّياتُها عِنْدَ سَابِق البَرْبَرِيّ (*)

د/ ناصر محمد دحان أحمد
الأستاذ المشارك في الأدب القديم (إسلامي أموي)
في قسم اللغة العربية ـ بكلية الآداب- جامعة تعز
naser34588@jmail.com

*) تاريخ تسليم البحث 2020/10/3م. تاريخ قبوله للنشر 2020/11/16م.
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

التجربة الزهدية وتجلياتها عند سابق البربري

د/ ناصر محمد دحان أحمد
الأستاذ المشارك في الأدب القديم (إسلامي أموي)
في قسم اللغة العربية ـ بكلية الآداب- جامعة تعز

الملخص

يُعَدُّ سابق البربري من شعراء الزهد البارزين في العصر الأموي، وقد تجلت هذه التجربة الزهدية في شعره بشكل واضح. ويهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على هذه التجربة الزهدية وتجلياتها عند سابق البربري. وقد بدأ هذا البحث بمقدمة، تلاها الشروع في البحث عن مفهوم الزهد من حيث اللغة والاصطلاح، وتجليات التجربة، والتعريف بالشاعر من حيث اسمه ونسبه وحياته، وبعد ذلك انتقلنا إلى البحث عن الرؤية الشعرية والسمات الجمالية في شعره. وقد خُتِم البحث بخاتمة وضّحت أهم النتائج التي توصّل إليها هذا البحث، ومنها: أن سابق البربري تميّزَ بفنٍّ شعريّ واحد هو الزهد، وفاق نظراءه من شعراء الزهد في العصر الأموي. وأشار البحث إلى مصادر الزهد عند الشاعر من خلال رؤية الشاعر لمضامين القضايا التي تناولها في تجربته الزهدية، ومنها: (ذمّ الدنيا الفانية، وقضية الموت، والحضّ على القيم الخلقية، وذمّ جمع المال واكتنازه، والوعظ). وحرص البحث على إبراز السمات الجمالية في شعره الزهدي في إطار (استعمال اللغة، وأثر لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عليها، والبحث في السمات الجمالية للصورة الفنية المتمثلة في (التشبيه والاستعارة)، والبحث في السمات الجمالية في الأساليب الإنشائية التي استعملها الشاعر).

الكلمات المفتاحية: الزهد، الرؤية، السمات، التجربة، التجليات.

"The asceticism experience for Sabeq Albarbary"

Dr. Nasser Mohammed Dahan Ahmed
Associate professor of old literature
The Arabic Language Department, Faculty of Arts (Taiz University)

The summary

Sabeq Albarbary, in Umayyad era, is considered one of the prominent asceticism poets. Such asceticism experience has appeared in his poems clearly. This research aims to shedding the light on this experience and its appearance. It has been initiated by an introduction and searching for the asceticism definition linguistically, formally. Besides, it entails a biography about the poet's name, life and poems. Lateron, the research clarifies the poet's poetic vision and the aesthetical features of his poems. The research has been concluded by the research results. For instance, Sabeq Albarbary has been distinguished by his only art which is asceticism. He has gone one better than his consorts in Umayyad era. The research has stated the asceticism sources for a poet. In addition, it has revealed the poet's poetic vision from different issues in his poems. For example, vilifying the mortal life, death, enlisting the virtuous guardians, vilifying collecting money and moralizing. Finally, the research has revealed the aesthetical features in his asceticism poems by using the language and its effect on the holly quran language, the honorable prophetic speech and aesthetical portraits. In addition, such researches into the aesthetic features of the artistic image and the construction methods used by the poet.

Key words: Asceticism, experience, vision, and features

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين ونصلّي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين محمد الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين، أما بعد:

تُعَدّ التجربة الزهدية تجربةً بارزةً في شعر سابق بن عبد الله البربري؛ فقد كان شاعر الزهد البارز في العصر الأموي، وثمَّة أسباب كثيرة في تجليات الزهد وظهوره عنده، ومنها ما يعود إلى نشأته الدينية، وتأثره الشديد بالقرآن الكريم، وسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وزهده في الحياة، وتأثره بحياة الصحابة وسلوكهم، وتعلقه الشديد بالخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز.

ويسعى هذا البحث ليكشف عن هذه التجربة الزهدية وتجلياتها في شعر سابق البربري؛ وذلك بالبحث عن ماهية الزهد وحقيقته، وتجليات تجربة الشاعر من خلال دراسة رؤيته الشعرية وأساليبه الفنية.

وقد اتَّخَذَ الباحثُ المنهجَ الفنيَّ في تَتَبُّعِ هذه التجربة الزهدية عند الشاعر، مع الإفادة من المناهج الأخرى في إضاءة هذه التجربة وتفسيرها من حيث الرؤية والفن، والكشف عن تجلياتها في نصوصه الشعرية.

وفي هذا البحث سنُفَصِّل القول في التجربة الزهدية وتجلياتها عند الشاعر، وفق المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم الزهد وتجليات التجربة والتعريف بالشاعر.

المبحث الثاني: الرؤيــة الشعرية.

المبحث الثالث: السمات الجمالية.

المبحث الأول

مفهوم الزهد وتجليات التجربة والتعريف بالشاعر

أ- مفهوم الزهد:

الزهد في اللغة: له دلالات متعددة ومختلفة تتقارب أو تتباعد بحسب الاستعمال وبحسب الإطلاق وتركيباته التعبيرية التي تعني عدم الرغبة بحيث يقال: زهد في الشيء إذا لم يرغب فيه،... فالزهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا، ويقال أزهد الرجل إزْهادًا إذا كان مزهدًا لا يرغب في ماله لقلته، وهذا الانصراف انصراف عن وجه من أوجه الدنيا وهو الزهد في المال(1). وبتعبير أدق: "الزهد والزهادة في الدنيا، ولا يقال الزهد إلا في الدين. والزهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا"(2). وزهد فيه وعنه، وزَهِدَ يَزْهَدُ، وزهِدَ زُهْدًا وزِهادةً، رغب

وتركه، فهو زاهد، والشيء مزهود فيه أو عنه، وهو ترك الميل إلى الشيء(3). ومما يُلاحظ أن أغلب معاني الزهد الواردة في المعاجم تدلُّ على الانصراف عن لذائذ الحياة ومتعها، وعدم الركون إليها، وتحقيرها والإقبال على العبادة، وهذا هو المدلول اللغوي للكلمة بكون الزهد نزعة روحية، وجاء في المعجم الصوفي أن أصل حروف كلمة زهد: (الزاي، والهاء، والدال) تدلّ على قلّة الشيء(4).

وفي الاصطلاح: "هو بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة، وهو التقشّف التّام(5). وبتعبير آخر: هو الكفّ عن المعصية وما زاد عن الحاجة، وترك ما لا يشغل عن الله، وبغض الدنيا، والإعراض عنها، ويحمل معنى أوسع من القناعة؛ فالقناعة هي الاعتدال، وأما الزهد فهو الورع، والكفّ عن المحارم والتحرّج منها، وقمع الشهوات(6). فإذا انصرف الإنسان للعبادة، وترك الاستمتاع بلذائذ الحياة زهد في الدنيا، وهذا هو المعنى الديني للزهد، يقول الرسول– صلى الله عليه وسلم– "إذا رأيتم الرجل قد أوتي زُهدًا في الدنيا ومنطقًا فاقتربوا منه؛ فإنه يُلَقَّن الحكمة"(7). فالزهد في نظر الإسلام "هو أسلوب من الحياة يحياها المؤمن، وموقف خاص من الدنيا وزخرفها وشهواتها ولذاتها، ومن النفس ومطامعها، وأخذ الإنسان نفسه بالمجاهدات الروحية والبدنية، وهو بهذا المعنى إسلاميّ حثّ عليه الدين، وأخذ به النبيّ – صلى الله عليه آله وسلم– وأصحابه"(8). وللزهد الإسلامي ثلاثة مصادر، هي: القران الكريم، والحديث النبوي الشريف، وحياة الخلفاء الراشدين والصحابة، فإذا ما تحدثنا عن المصدر الأول (القرآن الكريم) فنقول: إن القرآن الكريم يُعدُّ من أهم المصادر التي دعت إلى الزهد بالحياة وزخرفها وزينتها، قال تعالى: ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلّا مَتَاعُ الغُرُورِ))(9)، ووجّه إلى عدم الانشغال بمتاعها فقال: ((يَاأَيّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُم أَمْوَالُكُمْ ولاَ أَوْلادُكُمْ عنْ ذِكْرِ اللهِ))(10)، وبَيّن أن العملَ الصالح خيرٌ من ذلك كلّه، فقال:((المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحياةِ الدُّنيا والبَاقِيَاتُ الصّالحاتُ خَيْرٌ عنْدَ ربّكَ ثَوابًا وخَيْرٌ أَمَلاً))(11).

أما الحديث النبوي فهو من المصادر المهمة التي حثَّت على الزهد، فعن أبي العباس سهل الساعدي– رضي الله عنه– قال: جاء رجل إلى النبي– صلى الله عليه وسلّم–، فقال: "يارسول الله دُلّني على عمل إذا عملته أحبّني الله وأحبني الناس، فقال: ازْهَدْ في الدّنيا يُحبّك الله وازهدْ فيما عنْد النّاس يُحبّك الناس"(12). ولا شك في أن حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم– كانت مثلاً مُطابقًا للقرآن، كما وصفه ((وإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم))(13)، فقد نأى بنفسه عن الدنيا واختار الآخرة؛ ولذا خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير، وكان فراشه

من أدم وحشوه ليف، ولقد شَهِدَهُ عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– يضطجع على حصير أثَّر في جنبه، فعرضَ عليه أن يتخذ وطاء، فقال الرسول– صلى الله عليه وسلم – له: "مَالِي وللدّنيا؛ مَا أنا في الدنيا إلاّ كراكبٍ استظلّ تحت شجرة، ثم راح وتركها"(14). ويُلاحظ من هذه الأحاديث التحذير الشديد من الافتتان بالدنيا والتنافس فيها؛ لأن عاقبة ذلك الهلاك، وهذا ما يخشاه النبي– صلى الله عليه وسلم– على أمته. والمصدر الثالث لحركة الزهد هو حياة الخلفاء الراشدين والصحابة؛ إذْ تجَلّت في حياتهم تعاليم القرآن الكريم وأقوال الرسول العظيم، فأبو بكر الصديق– رضي الله عنه– كان مُتقَشِّفًا، وعندما مات لم يبقَ معه إلا درهمٌ واحد(15)، وعمر بن الخطاب – رضي الله عنه– عُرِفَ بخشونة طعامه حتى أنه أبى أن يأكل لحمًا بسمن، ولا أن يشرب عَسَلًا، ولا أن يجمع أدمين، وكان له ثوب واحد فيه اثنتا عشرة رقعة، وكان يغسله بيده(16). وكان عثمان بن عفان– رضي الله عنه– يأكل على الرغم من غناه الخلّ والزيت، ويطعم الناس طعام الإمارة، وكان يقيل في المسجد، وهو يومئذ خليفة، ويقوم وأثر الحصباء في جنبه(17). وكذلك كان علي بن أبي طالب– رضي الله عنه– زاهدًا في الدنيا يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، وكان يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، غزير العبرة، طويل الفكرة(18)، يقول عن الدنيا: "يا دنيا إليك عني أغري غيري ... قد باينتك ثلاثًا لا رجعة لي عليك، فعمْرُك قصير، وخطرك حقير، وخطبك يسير"(19).

ونخلص من هذا كله إلى القول: إن الزهد هو الحرص على ترك كل ما يشغل الإنسان عن ذكر الله ويشمل معنى الورع، وقد يأتي بمعنى التقشف التام، وتخلية القلب من ذكر ما هو دنيويّ، وقد يأتي بمعنى أوسع من القناعة التي هي كبح جماح النّفْس وشهواتها.

ب– تجليات التجربة

وردت كلمة التجلّي في اللغة من تجلى الشيء: انكشف واتّضَحَ وظهر، والتجلي بالمعنى الصوفي إشراق ذات الله وصفاته، أو ما ينكشف للقلوب من أسرار الغيوب(20). ووردت هذه اللفظة في القرآن الكريم في قوله تعالى: (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبّهُ لْلْجَبَلِ جعَلهُ دَكّاً وخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)(21)، وقوله تعالى:(والنّهَار إذَا تَجَلَّى)(22). وفي الاصطلاح الصوفي هو إشراق أنوار الحقّ على قلوب المقبلين عليه(23).

أما مفهوم التجربة فهي: الخبرة النفسية التي يمر بها الشاعر تجاه الذات أو الإنسان أو الحياة، أو الكون. وتمثّل التجربة الشعرية الدعامة الأولى للشعر، بل تعد من مقومات الشعر

الصادق، فإذا افتقدت لم تكن للموسيقا النظمية ولا لمتانة الديباجة ولا للتخيل المصنع أية فائدة للفن الشعري.

وبعبارة أخرى يمكن القول: إذا سيطر على نفس الشاعر موضوع، أو فكرة، أو مشهد من مشاهد الحياة، وعمّق شعوره وانفعاله به واستغرق فيه متأملًا مفكرًا، وأصغى إلى إيقاع النغم لهذه المعاناة في أعماق نفسه فهذه هي التجربة الشعرية. والشاعر إذْ يكابد التجربة الشعرية، فإنما هو "يكابد نوعاً من العذاب يحاول أن يتخلص منه، كما يتخلّص الجسد السليم من جرثومة ضارة"(24).

وقد رأى ستيفن سبندر "Stephen Spender" أن التجربة الشعرية هي إفضاء بذات النفس بالحقيقة كما هي في خواطر الشاعر وتفكيره في إخْلاصٍ يشبه إخلاص الصوفي لعقيدته، ويتطلب هذا تركيز قواه وانتباهه في تجربته"(25).

وقد تجلّت التجربة الزهدية في شعر سابق البربري بشكل واضح، فحملت أشعاره صورة واضحة عن أخلاقه وعلمه وصلاحه، ومثّلت فلسفته في الحياة قولاً وفعلاً؛ إذْ كانت صورة واضحة للزهد والرياضة النفسية التي أخذ بها المسلمون مستجيبين لدعوة القرآن والسُّنة إلى نزع أغلال الدنيا الزائلة من أعناقهم؛ ولذلك وقف الرواة على شعره وتدارسوه باهتمام، وجعلوه مع محمود الورّاق وصالح بن عبد القدوس، يقول ابن المعتز: "وشعر محمود كثير، وأكثره أمثال وحكم ومواعظ وأدب، وليس يقصّر بهذا الفن عن صالح بن عبد القدوس وسابق البربري"(26).

ويذكر ابن عساكر أن سابق البربري صاحب كلام في الحكمة والزُّهد، فيقول: "وسابق هذا أحد الزهاد المشهورين قدم على عمر بن عبد العزيز وأنشده أشعارًا له في الزهد"(27).

وأما المراجع الحديثة فإنها تؤكّد على أن سابقًا اشتهر بفن واحد هو شعر الزهد والحكمة، يقول (كارل بروكلمان): "وأوّل من قال في الزُّهديّات سابق بن عبد الله"(28).

ولا شكّ أن الصبغة العامة لأشعاره هي الزهد والنسك والعبادة وهي سمة غلبت على كل أشعاره بالإضافة إلى الحكم والأمثال. ويُلاحظ أن منابع شعر سابق البربري إسلامية محضة، ومنها تأثير القرآن الكريم وأحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلّم–، ثم أقوال الزهّاد والعُبّاد الذين عاصرهم؛ ولذلك جاءت تجربته الزهدية منسجمة مع فلسفة القرآن الكريم والسنة النبوية من تحقير الدنيا والتقليل من شأنها، إلى التوكل والإيمان بالقضاء والقدر، والإكثار من العبادة والتقوى. وبتعبير أدقّ: إنّ شعر الزهد عند سابق يدور حول التنفير من الدنيا، وذمّ الإقبال عليها؛ لأنها تَغُرُّ الإنسان بزخرفها وزينتها ومتاعها الزائل، وارتباطه بها،

وما له من مصير محتوم وهو الموت والزوال عن هذه الدنيا والحساب على ما قدمت يداه؛ إذْ لا يصحب الإنسان إلاّ عمله الصالح، ولا يغني عنه ماله(29). ويتضمّن شعره الحضّ على القيم الخلقية من حلم ورع وتقوى وإخلاص وحكمة ودعوة إلى الفضائل والأخلاق الحميدة وسوى ذلك. وسنُفَصِّل القول في هذه القضايا من خلال دراسة الرؤية الشعرية عند الشاعر في المبحث الثاني.

ج- التعريف بالشاعر:

اسمه ولقبه: الشاعر هو: أبو سعيد سابق بن عبد الله البربري، سكن الرّقّة، وقد كان يَرْوِي عن مكحول الدمشقي وعمرو بن أبي عمر، ورَوَى عنه الأوزاعي وأهل الجزيرة، وهو الذي يروي عن سعيد بن سعيد بن سمعان، وأبو أحمد بن محمد بن موسى بن حماد البربري. إذن فقد قرر السمعاني في ترجمته اللقب، وهو (البربري) مؤكدًا ما روته مصادر القرون السابقة، وأكّد مرة أخرى الكنية (أبو سعيد) ثم جاء باسمه سابق بن عبد الله(30).

أما ابن عساكر (ت571) فقد حدّد له ثلاث كُنى، فقال: "سابق بن عبد الله، أبو سعيد ويقال: أبو أمية، ويقال: أبو المهاجر الرقي المعروف بالْبَرْبَرِيّ الشاعر"(31). ويؤكد ابن الجزري (ت630هـ) اللقب، فيقول عن نسبة البربري: "هذه النسبة إلى بلاد البربر وهم جيل كبير من ناحية كبيرة من بلاد المغرب، والمشهور بهذه النسبة: أبو سعيد سابق بن عبد الله البربري، وليس منسوبا إلى البربر، وإنما هو لقب له(32). ولعل هذا اللقب مأخوذ عن ما شهر به البربر من بياض البشرة وزُرْقة العينين، وقد كُنِّيَ بالرقِّي لأنه سكن الرّقّة، كما فعل ابن عساكر؛ إذْ قال: "سابق بن عبد الله أبو سعيد، ويقال أبو أمية، ويقال أبو المهاجر الرقِّي المعروف بالبربريّ الشاعر"(33). إذن، فالبربري ليس نسبة إلى البربر وإنما لقب له، وأكد على ذلك من المعاصرين (سامي مكّي العاني) في كتابه (معجم ألقاب الشعراء) إذ قال: "شاعر أموي، اسمه أبو سعيد سابق بن عبد الله، لُقِّب بذلك، ولم يكن من البربر"(34).

أما عبد الله كنون فقد جعل سابقًا مغربيًا يفاخر به المغرب، وهذا الرأي لم يقل به أحدٌ من المؤرّخين، ولم تذكره المصادر، وله الفضل في أنه كشف الستار عن سابق البربري(35).

حياته: لم تذكر المصادر بالتحديد شيئا عن مولده، أوْ وفاته، أو نشأته إلا أخبارًا قليلةً عن بعض مشايخه، وتلامذته، وأخبارًا قليلة عن أصله ونسبه، ومن الأخبار التي وصلتنا عن سابق البربري، ما قاله ابن عساكر: " قدم عَلَى عُمَر بن عبد العزيز، وأنشده أشعارًا في الزهد"(36). ويُروى عن ميمون بن مهران أنه قال: "دخلت على عمر بن عبد العزيز يوما وعنده سابق البربري، وهو ينشده شعرًا، فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات:

فَكَمْ مَنْ بَاتَ لِلْمَوْتِ آمِنًا أَتَتْهُ المَنَايَا بغْتَةً بَعْدَ مَا هَجَعْ
فلَمْ يَسْتَطِعْ إِذْ جَاءَهُ المَوْتُ بَغْتَةً فِرَارًا مِنْهُ بِقُوَّتِهِ امْتَنَعْ
وقُرِّبَ مِنْ لَحْدٍ فَصَارَ مَقِيلَهُ وَفَارَقَ ما قَدْ كَانَ بِالأَمْسِ قدْ جَمَعْ

قال: فلم يزل عمر يبكي ويضطرب حتى غشي عليه فقمنا فانصرفنا"(37).

ويُعَدُّ سابق البربري من الفقهاء المُحَدِّثين ومن الشعراء البارزين في فنّ الزهد في العصر الأُمويّ، وتتلمذ له أبو العتاهية، وأقام سابق في الشام، وكان مُهْتمًّا برواية الحديث النبويّ الشريف، ولقد حدّث فيها وله روايات عن مكحول الدمشقي (ت112هـ)، فقد كان سابق البربري ينشد مكحولاً، وهو في الغزو، ولا شكّ في أنه قبَسَ منه علمه وروى عنه الأحاديث، وقد روى مكحول عن كثير من الصحابة وممن روى عن سابق الأمام الأوزاعي(ت 157) إمام أهل الشام(38). واشتغل سابق البربري في القضاء، فقد كان قاضي الرقة وإمامًا لمسجدها في خلافة عمر بن عبد العزيز(ت101هـ)، واشتهر الشاعر بالوعظ، وله أخبار في وعظ الخليفة عمر بن عبد العزيز(39). وبتعبير آخر: إن سابقًا كان معاصرًا للخليفة عمر بن عبد العزيز، وأنه قد بلغ من النضج الكامل درجة كبيرة؛ فقد كان مؤثّرا بوعظه في عُمَر ومقرّبًا إليه. وكان الخليفة عمر زاهدًا وقرّب إليه من الوعّاظ والشعراء الزُّهّاد أمثال سابق البربري الذي كان على درجة عالية من الزهد والورع والتقوى، وحسن الخلق، ولم يقرّب عُمَرُ أحدًا من الشعراء المداحين وسواهم.

وأما حياته العلمية فنقول: إن سابق البربري تأثَّر بالبيئة العلمية في الشام، حيث انتشرت حلقات العلوم الدينية المتنوعة، وحلقات القصص والوعظ حتى أصبحت الشام ملتقىً علميًا عظيمًا يقصده العلماء فيستفيدون ويفيدون، فضلا عن انتشار مجالس الوعظ بالشعر، وقد أدَّى انتشار الحلقات الوعظية في تلك البيئة المترعة بالعلماء والوعّاظ إلى ازدهار فنّ الوعظ النّثْري. وقد التزم سابق مجلس الخليفة عمر الذي اشتهر بالحلقات الدينية والحلقات الوعظية المتنوعة في الزهد والورع والتقوى والعمل الصالح(40).

وكانت الشام بيئة خصبة للأدب والأدباء في العصر الأموي، حيث كانت تعقد في مجالس الخلفاء والولاة حلقات الأدب المتنوعة، وقد قصد الشام الشعراء من جميع الأمصار الإسلامية؛ لأن الخلفاء الأمويين شجّعوا الشعراء، وفتحوا بيوتهم مَجَالِسَ لمحاورات أدبية وشاركوا الشعراء في ذلك، بل أجزلوا لهم العطاء، ولكن موقف الخليفة عمر بن عبد العزيز كان مغايرًا لهؤلاء الخلفاء، فقد استقبل الشعراء الزهّاد أمثال سابق؛ مما يؤكد كثرة حضور سابق البربري مجالس عُمَر وحظوته عنده. ولعلّ موقف عُمَر هذا يُعدُّ سببًا من أسباب شيوع

الزُّهد في الشام وازدهار شعر الزهد والمواعظ في تلك البيئة حينذاك. وإذا كان سابقٌ قد تولَّى منصب القضاء في الرقة، فلا بدّ أنه قد اتَّصف بالعدل والصدق والتّقوى والورع وسماحة الخلق والذكاء والفطنة والقدرة على الاجتهاد، ولابدّ أنه كان ذا إلمام تام بالعلوم الدينية والأحكام الشرعية، بأنْ تفَقّه في القرآن وعلومه والسنة وما يتصل بها، ففي أخباره أنه روى الحديث، وتعلّم الفقه وأصوله(41).

المبحث الثاني

الرؤية الشعرية

لا شكّ أن الحياة الاجتماعية قد تحَضَّرت وتطَوَّرت في العصر الأموي، بسبب الهجرات الواسعة للقبائل العربية من الجزيرة العربية واستقرارها في أقاليم متحضرة في (الشام والعراق ومصر)، مع الأخذ بكل ما هيّأته لها الحضارات الأجنبية من سبل العيش ولين وترف، وظهر جيل من المولّدين يقبل على حياة اللهو والترف، وفي المقابل وُجِد الزاهدون المتعبِّدون الذين زادتهم حياة اللهو والترف إمعانًا في الزهد وعكوفًا على العبادة، وأعانهم على ذلك السلوك المثالي للمسلمين الأوائل الذين كانت حياتهم مضرب المثل في الورع والتقشّف، ومن هؤلاء الشعراء سابق البربري، فقد تَأثّر بالقرآن الكريم والسنة النبوية اللّذيْن يَدْعُوان إلى الزهد، ويحثّان في الإقبال على الآخرة والتقوى والورع . وقد ضَربَ سابق البربري أروع الأمثلة في الزهد والتقشُّف والورع، وتناول شعره موضوع الزهد بشتى ألوانه ومضامينه من خلال رؤية شعرية تجلّت قي القضايا التالية:

أ- ذمّ الدنيا الفانية:

لقد شغلت الحياة الدنيا بال الشعراء، وتحدّثوا عنها كثيرًا، ولما أيقنوا وعرفوا حقيقتها زهدوا فيها، وتَحدثّوا في أشعارهم عن سُرعة زوالها، وأنَّ الدارَ الآخرة خيرٌ وأبقى، وأنها أفضل من الأولى الفانية، فقد كانت معاني سابق تتركّز في قِصَر الدنيا وسرعة زوالها، والتنفير منها، وذمّ الإقبال عليها؛ لأنها خدّاعة تغرُّ الإنسان بزخرفها وزينتها ومتاعها، ويتساءل ما بال الناس يتمسّكون بها، ويتهالكون عليها ويعلمون أنها زائلة وذاهبة بلا رجعة؟ ومَنْ غادرها لا يعود إليها، وأن صلتهم وعلاقتهم بها سوف تنقطع لا محالة، فيقول:

مَالي أرَى النَّاسَ والدُّنْيَا مُوَلّيةٌ وَكُلُّ حبْلٍ عَلَيْهَا سوْف يَنْبَتِرُ

لا يَشْعُرُونَ بِمَا في دِينِهِم نَقَصُوا جُهْلًا ،وإنْ نَقَصَتْ دُنْيَاهُمُ شَعَرُوا(42)

الشاعر يؤكِّد على أن الدنيا لا يصفو فيها عيش، ولا يُسَرُّ بها إنسان، فإنْ سَرّته يوْمًا ساءته أزمان، لها حلاوة لا تدوم، فإن دامت حلاوتها انتهت بمرارة، فلا خير في حلوها ومرّها، يقول:

فما صَفا لامْرِئٍ عَيْشٌ يُسَرُّ بِهِ إلاّ سَيَتْبَعُ يَوْمًا صَفْوَهُ كَدَرُ

لهَا حَلاوَةُ عَيْشٍ غَيْرُ دَائِمَةٍ وفِي العَوَاقِبِ مِنْهَا الْمُرُّ والصَّبِرُ(43)

الشاعر هنا يقرر أن الدنيا ليست بذات قرار، فمتى درَّت للإنسان وصَفَتْ له في عيشها، فحتمًا سيأتي يومٌ وينغّص فيه الإنسان ويُكدّر عيشه، ولذا نجد الشاعر ينفِّر من هذه الحياة الفانية التي لا تدوم على حال، ولا يطيب العيش فيها، فلا خير فيها سواء بعيشها الحلو أو المر.

وقد درجت الدنيا على الخيانة والغدر لأهلها، فلا يأمن منها إنسان، فهي خدّاعة بما فيها من فتن، وربما تغتال الإنسان دون أن يدرك شَرَكها وفتنتها، ولذا نجد سابقًا يحذِّر الإنسان من الدنيا وفتنتها، يقول:

وقَد خَانَتِ الدُّنْيَا قُرُونًا تَتَابَعُوا كمَا خَانَ أَعْلَى البَيْتِ يَوْمًا أَسَافِلُهْ

وتُصْبِحُ فيها آمِنًا ثمَّ لمْ تَكُنْ لِتأْمَنَ في وادٍ بِهِ الخَوْفُ نَازِلُهْ

رَضِينَا بما فيها سَفَاهًا ولمْ يكُنْ يَبيعُ سَمينَ اللّحْمِ بالغَثِّ آكِلُهْ

وعاقِبَةُ اللّذّات تُخْشَى ، وإنّمَا يُكَدِّرُ يوْمًا عَاجِلَ الأمْرِ آجِلُهْ(44)

يحذّر الشاعر الإنسان من فتن الدنيا، وعاقبتها ولذّاتها، فإذا رَضِيَ بها فحَاله مثل من يبيع سمين اللحم بالغثّ منه، وسيأتي عليك أيها الإنسان يوم نكد يُكَدّر ما أنت فيه من النعيم.

ب- قضية الموت:

تعدّ هذه القضية من القضايا المُهمّة التي تناولها سابق البربري، فقد سيطرت هذه القضية على تفكير سابق البربري حتى أصبحت الحاكم الأساسيّ لكلّ نظرة له في الحياة والكون، وقد ارتبطت هذه القضية بتحقير الشاعر لهذه الدنيا الفانية، فجعل ذلك مُنْطَلَقًا للتذكير بما بعدها من المصير المحتوم. ولا شكّ في أن الموت يُعدُّ فاصلاً بين حياتين، وقد أكثر الشاعر من ذكر الموت والجنائز؛ لتكون فكرة الخلاص من الدنيا حاضرة في الذهن، وقد نبَّه الشاعر الغافلين عن هذا المصير المحتوم على كلّ إنسان، فلا ينجو أحدٌ من الموت، وفي ذلك يقول:

يا نَفْسُ كلُّ قابرٍ مقْبُورُ
ويَهْلَكُ الزّائـرُ والمَزُورُ
ويَقْبِضُ العَارِيَةَ المُعيـرُ
وذُو الْهَوَى يَسُوقُهُ المَقْدُورُ(45)

ونرى الشاعر يُحذّر من الدنيا ويذكّر بالموت، ويَعظ به كثيرًا، فيؤكّد أنه نازل بكل حيّ، ويربط الشاعر بين فكرة الموت ودخول القبر والحساب، متأثرا بالقرآن الكريم؛ وذلك ليكسب نصّه الشعري قوة التأثير في المُتَلَقّي، فيقول:

وبَعْد دُخُولِ القبْرِ يَا نفْسُ كُرْبَةٌ وهَوْلٌ تُشِيبُ المُرضِعِينَ زلاَزِلُهْ
إذَا الأَرْضُ خَفَّتْ بعْد نَقْلٍ جِبَالُها وخَلَّى سَبيلَ البَحْرِ يَا نَفْسُ سَاجِلُهْ
فلا يَرْتَجِي عَوْنًا عَلَى حَمْلِ وِزْرِهِ مُسِيءٌ ، وأَوْلَى النَّاسِ بالوِزْرِ حامِلُهْ
إذا الجَسَدُ المَغْمُورُ زَايَلَ رُوْحَه خَوَى ، وجَمالُ البيْتِ يا نفْسُ آهِلُهْ
وقد كانَ فيه الرُّوحُ حِينًا يَزِينُهُ وما الغِمْدُ لولا نَصْلُه وحَمائلُهْ(46)

تناول الشاعر قضية الموت وصَوّرها من خلال ربطها مباشرة بدخول القبر تارةً، وتارةً أخرى ربطها بالحساب وهول يوم القيامة. والشاعر هنا يستحضر ما تأثر به من معاني الآيات الكريمة، فهو يضمّن في البيت الأول من قوله تعالى: ((يومَ تذهلُ كلُّ مُرضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ))(47)، وقوله تعالى: ((يومًا يجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا))(48)؛ ولذلك يحمل كل إنسان أوزاره، فهو أولى بحملها من غيره، فيضمّن الشاعر من قوله تعالى: ((وهم يَحْملونَ أَوْزَارَهم على ظُهورِهم))(49)، وقوله تعالى: ((ألاّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى، وأنْ لَيْسَ للإنْسانِ إلاّ مَا سَعَى، وأنَّ سَعْيَهُ سَوْف يُرَى، ثم يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى))(50)، وبذلك يؤكد الشاعر على أن الإنسان لا ينفعه ماله ولا أولاده ، ولا ينفعه أي شيء مما امتلكه في هذه الحياة الدنيا إلا ما قدّمه بين يَدَي ربّه من عمل صالح. ويحذّر الشاعر من الموت، فيقول:

وكَمْ مِنْ صَحيحٍ باتَ للموْتِ آمِنًا أَتَتْهُ المنَايَا بغْتَةً بَعْدَمَا هَجَعْ
فَلَمْ يَسْتَطِعْ إذْ جَاءَهُ الموْتُ بَغْتَةً فِرَارًا ، ولا مِنْهُ بِقُوَّتِه امْتَنَعْ
فأَصْبَحَ تبْكِيهِ النِّسَاءُ مُقَنّعًا ولا يَسْمَعُ الدَّاعِي وإنْ صَوْتُه رَفَعْ
وقُرِّبَ مِنْ لَحْدٍ فَصَارَ مَقِيلَهُ وفَارَقَ مَا قَدْ كانَ بالأَمْسِ قَدْ جَمَعْ
فلا يَتْرُكُ المَوْتُ الغَنِيَّ لِمَالِه ولاَ مُعْدِمًا في المَالِ ذَا حَاجَةٍ يَدَعْ(51)

الشاعر هنا يُذكّر بالموت (هادم اللّذات)، فيُقرّر أن الإنسان الفطن لا بدّ له أن يكون على حذر في حياته، فهناك الكثير من الناس الأصِحّاء يغفلون عن حقيقة مصيرهم، ويصبحون

غافلين في حياتهم حتى أتتهم مَنَاياهُم فجْأةً، وهم أصِحّاء فاغتالتهم، فلم يستطيعوا الفرار منها، وإن كانوا في قصور مُشيّدة. والشاعر هنا يضمن أشعاره بعض آيات الذكر الحكيم، ومنها، قوله تعالى: ((قُلْ إنَ المَوْتَ الّذِي تفرّونَ مِنْه فإنَّهُ مُلاقِيكُم))(52). ويؤكّد الشاعر على هذه الحقيقة الثابتة أن الموت كتبه الله على كل إنسان سواء أكان ذا مَال((غنيًا))، أم كان فقيرًا مُعدمًا، وأن لا يغترّ الإنسان بماله الكثير، فإنّه سيموت، ولم يخلّد في حياته، ويترك ماله لسواه، ولذلك ينبغي عليه ألا يُغَيّب فِكْرَه عن القبر الذي سيصبح مسكنه ومقيله الحقيقي.

ج- القيم الخُلُقِيّة:

لاشكّ في أن سابق البربري من الشعراء الزهاّد الذين تأثَّروا بمبادئ القرآن وتعاليمه السامية، بل تأثّر بسيرة إمام الزاهدين محمد – صلى الله عليه وسلم- وكذلك تأثّر بحياة الخلفاء الراشدين، فكان مِثَالاً للزاهد التّقيّ والفقيه الورع، والقاضي العادل الذي يتَدَثَّر بالأخلاق والقيم الحميدة. ويرى سابق البربري أن التقيَّ لا يموت له ذكر، بل يظلّ ذكره باقيًا بين الناس، حيث يقول:

مؤتُ الّتقِيّ حَيَاةٌ لا انْقِطَاعَ لَهَا قَدْ ماتَ قَوْمٌ وَهُمْ في النّاسِ أَحْيَاءُ(53)

ونجد الشاعر يرسّخ مبدأ التسامح والمسالمة التي اشتهرت عند الزُّهَّاد، فالشاعر هنا يُكرّس القيمة الخلقية للحلم والعفو ومقابلة الإساءة بالإحسان والصفح عن المسيء، ويُقرّر أن الحلمَ يزين صاحبه، ويجعله في شرف وسُؤدُد، وأنّ الجهلَ يشين صاحبه ويعيبه، فيقول:

أَلَمْ تَرَ أنّ الْحِلْمَ زَيْنٌ مُسَوِّدٍ لصَاحِبِه ، والْجَهْلَ لِلْمرْءِ شَائِنُ

فَكُنْ دافئًا للشَّرِّ بالخَيْرِ تسْتَرِحْ مِنَ الشَّرِّ إنَّ الْخَيْرَ لِلشَّرِّ دَافِنُ (54)

ونجد الشاعر يقرن الحلم بالعلم ويربط بينهما، ويرى بأنهما خُلَّتَا كَرَمٍ للإنسان تزَيَّناه إذا اجتمعتما فيه، ولا يستقيم حسنهما إلاّ إذا ارتبطتا معًا، فكم مِنْ وضيع ليس له شأن ارتفع بالحلم والعلم؛ فنال أعلى الرتب، وسما بهما على كثير من الناس، فيقول:

الْعِلْمُ والْحِلْمُ خُلَّتَان هُمَا لِلْخَلْقِ زَيْنٌ إذَا هُمَا اجْتَمَعَتا

صِنْوانُ لاَ يَسْتَقِيمُ حُسْنهُمَا إلا بِجَمْعٍ لِذَا وذاك مَعَا

كَمْ مِنْ وَضِيعٍ سَمَا بِهِ العِلمُ والْ حِلْمُ فَنَالَ العَلاءَ وارْتَفَعَا (55)

ونجد الشاعر في بيت آخر يؤكّد على التقوى، وأنها خير زاد يحمله الإنسان، وذلك في وعظه للخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، فيقول:

إنّ التُّقَى خيْرُ زادٍ أنْتَ حَامِلُهُ والبِرُّ أفْضَلُ شَيْءٍ نالَهُ بَشَرُ (56)

إن هذه القيمة الدينية الخلقية ((التقوى والبر)) استمدّها الشاعر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ((وتزوَّدُوا فإنَّ خيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، واتَّقُونِ يا أولِي الأَلْبَاب))(57). ويصور التُّقَى والهداية للإنسان في أهميتهما لتحقيق راحته النفسية والشفاء لقلبه، مثل الغيث الذي تنتفع منه الأشجار العَطْشَى، فتصبح نَضِرَةً بعد جفاف، ويرى أن العَالِمَ بالتَّقْوى والعامِلَ بها ليس كمن يجهلها، ويُمثِّل على ذلك بالأعمى والبصير مستخدما التصوير لدعم فكرته، وتحقيق ما يصبو إليه، فيقول:

وفي الهُدَى عِبَرٌ تَشْفَى القُلُوبُ بِهَا كالغَيْثِ ينْضِرُ عنْ وسْمِيّةِ الشَّجَرُ

ولَيْسَ ذُو العِلْمِ بِالتّقْوَى كَجَاهِلِهَا ولاَ البَصِيرُ كَأَعْمَى مَا لَهُ بَصَرُ(58)

د- **ذمُّ المال وتحقير جمعه واكتنازه:**

لقد تناول كثير من الشعراء هذه القضية وأكثروا من ترديدها في شعرهم، وذلك نتيجة انغماس كثير من الناس في الحياة الدنيا، فقد شهد العصر الأموي تطورًا ماديًا واسعًا نتيجة الفتوحات، وكثرة الموارد المادية من الخراج والجزية وغير ذلك، وكثير من المصادر الزراعية والتجارية التي جعلت الأموال في جيوب المسلمين، مما ضاعف من ثرائهم، ونتيجة لذلك مضى كثير من أصحاب الثراء يحقِّقون كل ما تصبو إليه أنفسهم من صور الترف، مما أدَّى في أواخر العصر إلى ذيوع شعر الخمر وانتشاره، وهذا – فيما أظن– كفيل بزعزعة الإيمان في قلوب بعض الناس، فظهر شعراء زاهدون – ومنهم سابق– يوعظون الناس بذمّ المال والتهالك عليه وتحقير جمعه واكتنازه. ونجد الشاعر –في هذا المضمون – يتحدّث بلسان خطابي، فيقرّر بعض الحقائق التي ينبغي للمؤمن أنْ يقتنع بها، ويعيش في الدنيا مُسَلِّمًا بها؛ لأنَّ النفسَ تجهد في الكدّ والسعي في الحياة الدنيا، وتجْمَع الأموال، لكنها لذوي الميراث تتركها، وهي تعلم أنّ السلامة منها ترك ما فيها، يقول:

النَّفْسُ تَكْلَفُ بالدُّنيَا وقَدْ عَلِمَتْ أنَّ السَّلامَةَ مِنْهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

واللهِ مَا قنَعَتْ نَفْسِي بِمَا رُزِقَتْ مِنَ المَعيشَةِ إلاّ سوْفَ يَكْفيهَا

أمْوالُنَا لِذَوِي المِيرَاثِ نَجْمَعُهَا ودُورُنَا لِخَرَابِ الدّهْرِ نَبْنِيهَا(59)

ونرى سابقًا يذمّ جمع المال، فيقرّر أن الإنسان لا يُخلّد في هذه الدنيا، وأنه مهما جمعه الإنسان فإنه سيتركه لغيره، يقول:

وتَجْمَعُ مَا لا تأْكلُ الدّهرَ دَائِبًا كَأَنَّكَ في الدُّنيَا لِغيْرِكَ خَازِنُ(60)

هـ – الوعظ:

لقد ظهرت في العصر الجاهلي بعض المواعظ والوصايا المتناثرة في ثنايا القصائد على شكل مقطّعات أو أبيات متناثرة فيها، وتطوّر هذا اللّون من حيث المضمون والفن في صدر الإسلام. أما في العصر الأموي فقد تطوّر هذا اللّون من الشعر تطوّرًا كبيرًا على يد (سابق البربري)، ويدور شعره الوعظيّ في مقاصد كثيرة ومنها: الوعظ الدينيّ ومنه التذكير بالموت والاتّعاظ بقصص الأمم السابقة، والمواعظ التي تندرج تحت العلاقات الإنسانية مثل النصيحة إلى اختيار الصديق الحسن ومراعاة حقوق الأصدقاء، ووعظه بالعلم مقرونًا بالعمل وذمّ الجهل، وكذلك الرزق. ومن شعره في الوعظ قصيدته الرائية التي قدّمها إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقد بلغت خمسين بيتًا، يقول في مطلعها:

بِاسْمِ الّذي أُنْزِلَتْ منْ عِنْدِه السُّوَرُ والحَمْدُ لِلّه، أمَّا بَعْدُ يا عُمَرُ

إنْ كُنْتَ تعْلَمُ ما تأْتي وما تَذَرُ فَكُنْ علَى حَذَرٍ، قَدْ يَنْفَعُ الْحَذَرُ(61)

لقد بَدَت قصيدة الشاعر وكأنّها خطبةٌ دينيةٌ، فجعلها في الوعظ والتذكير بالموت والحضّ على الرضا بالقضاء والقدر، والدعوة إلى ترك زينة الحياة الفانية، والاستعداد لليوم الآخر والحياة الباقية. ومن قوله في الوعظ الدينيّ الذي يذكّر فيه بالموت:

كمْ مِنْ عَزِيزٍ سَيَلْقَى بَعْدَ عِزَّتِهِ ذُلاً ، وضَاحِكَةٍ يوْمًا سَتَبْكِيهَا

لا تبْرَحُ النفْسُ تُنْعَى وهْيَ سَالِمَةٌ حَتّى يَقُومَ بِنَادِي القَوْمِ نَاعِيها(62)

ولم يكتفِ الشاعر بذلك، بل نجده يعظ الناس كثيرًا بما حلّ بالأمم السابقة في القصيدة نفسها، ولا نعجب حين نرى الشاعر يتساءل عن مصير الملوك والأمم السابقة التي غفلت عن مصيرها حتى ذاقت كأس منيتها، ويُعدّد أولئك الأقوام، ومنهم قوم عاد وثمود وتُبّع، وسواهم من الأقوام الذين غرّهم ملكهم وقوتهم وجبروتهم بالله الغرور، فحلّ بهم الدمار والهلاك، ولاقوا مصيرهم المحتوم، فيقول الشاعر:

أيْنَ المُلُوكُ الّتي عَنْ خَطْبِها غَفَلَتْ حتّى سَقَاها بِكأْسِ الموتِ سَاقِيهَا

غرَّتْ زَمانًا بمُلْكٍ لاَ دَوَامَ لَهُ جَهْلا كَمَا غَرَّ نَفْسًا مَنْ يُمَنِّيهَا

وصبَّحَتْ قوْمَ عادٍ في ديَارِهِمْ بمقْطعٍ يومًا عادَتْهُم عَوَادِيهَا

وثُبَّعًا وثمودَ الحِجْرِ غادَرَهُمْ ريْبُ المنونِ رَمِيمًا في مَغَانيهَا

نَلْهُو ونَأْمَل أيَّاماً تُعدُّ لَنَا سريعةَ المُرِّ ، تَطْوِينا ونَطْوِيها(63)

يذكّرنا الشاعر في هذه الأبيات بما حَلَّ بالأمم السابقة من مهالك جراء طغيانهم وتجبّرهم ليرتدعَ اللاحقون ويتّعظوا بهم، ويَذْكُرُ الأقوام التي بادَتْ وهَلَكَتْ بعد قوّتها ومنعتها، ويتساءل

عن الملوك الذين غرَّهم المُلك والمَنْعة، فأنساهم مصيرهم إلى أنْ فاجأتهم المنيّة وسقتهم من كأسها. ومن مواعظه الرضا بالقضاء والقدر والإذعان لحكم الله بالصبر وعدم القنوط من رحمة الله، حيث يقول:

وإنْ جاءَ مَا لا تسْتَطِيعَان دَفْعَهُ فَلا تَجْزَعَا مِمَّا قضَى اللهُ وصَيَّرَا

فلا تيْأَسَا واسْتَغْفرَا اللهَ إنَّهُ إذَا اللهُ سَنّى عقْدَ أمْرٍ تَيَسَّرَا(64)

الشاعر هنا يعظ شخصيْن وعظًا ينمُّ عن إيمان عميق بالله، فيقرّر أنّ ما قدّر عليهما خالقهما من مشقّة أو مرض أو موت أو نقص مال أو ثمرات أو سواها، فما عليهما إلا أن يصبرا لقضاء الله وقدره، وأن يرضيا بذلك، وأنْ لا يصيبهما اليأس، وأن يؤمنا بأنَّ ما كتبه الله آتٍ، وبعد ذلك تأتي البشارة للصابرين، حيث يقول تعالى: ((ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخوْفِ والجُوعِ ونقْصٍ مِنَ الأمْوالِ والأنْفُسِ والثَّمَرَاتِ وبشّرِ الصَّابِرين))(65).

ومن مواعظه التي تدخل تحت العلاقات الإنسانية ((الصّداقَة))، فهو يبين أثرها والمبادئ التي تقوم عليها الصداقة، وكأنّ لسان حاله يقول: إن من الخير ألّا تكثر من طلب السقطات والأخطاء من الأصدقاء؛ لأنك إنْ تماديتَ في ذلك وأكثرتَ أخاك من العتاب تَبَاعدَ الناس عنك، وصرتَ بعد مدة من الزمن مُجتنبًا منْبوذًا، فيقول الشاعر:

إذَا مَا كُنْتَ طَالِبَ كُلِّ ذَنْبٍ ولَمْ تُحَلِّلْ أخَاكَ مِنَ الْعِتَابِ

تبَاعَدَ مَنْ تَبَاعد بَعْدَ قُرْبٍ وصَارَ بِكَ الزَّمَانُ إِلَى اجْتِنَابِ(66)

ونجد الشاعر يعظ، فينصح باختيار الصديق الحسن، ويراه أمرًا مهمّا؛ لأنّ القرين يقتدي بقرينه، ويتأثر به، بل تنعكس صفات الصديق على من يصادقه أو يصاحبه، فيقول:

إنْ كُنْتَ مُتّخِذًا خَلِيلاً فَتَنَقِّ وانْتَقِدِ الْخَليلاَ

مَنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مُنْصِفًا في الْوُدِّ فابْغِ بِهِ بَدِيلاً(67)

ومن مواعظه تأكيده على أن العلم لابد أن يتبعه العمل، والإصرار على الجهل مضرّة للإنسان، فهو يصبح حجّة عليه، إنه ينصح الإنسان بأن لا ينبغي عليه أن يخلد إلى الجهل، حيث لا عذر لمن احتجَّ بالجهل، بل هو مطالب بالسعي للعلم، ثم العمل به، فيقول:

إذَا العِلمُ لَمْ تَعْملْ بِهِ صَارَ حُجَّةً عَلَيْكَ، ولَمْ تُعْذَرْ بِمَا أنْتَ جَاهِلُهْ(68)

ونجد الشاعر يعظ الإنسان برزقه، ويؤكّد على أن الله – عزّ وجلّ– قد ضمن رزق الإنسان وقد سبق قضاؤه بذلك، وهذا ينمّ عن إيمان عميق من لدن الشاعر، فيقول:

سبَقَ القَضَاءُ بكُلِّ مَا هوَ كائِنُ واللهِ يَا هَذا لِرِزْقِكَ ضَامِن(69)

ونخلص من هذا كله إلى القول: إن رؤية سابق الشعرية تتجلّى حول موضوع الزهد بشتى مضامينه وصوره، من ذَمِّهِ للدنيا الفانية، والإقبال على الآخرة، وقضيه الموت، والدعوة إلى القيم الخلقية، وذمّ جمع المال واكتنازه، وأخيرًا: الوعظ، وله عدة صور، ومنها: الوعظ بـ((الموت والأمم السابقة، والصداقة، والعلم وذم الجهل، والرزق)). وهذه الروية منبعها التأثّر الشديد بالقرآن والحديث النبوي الشريف، والتأثّر بحياة الخلفاء الراشدين والصحابة رضوان الله عليهم.

المبحث الثالث

السمات الجمالية

في هذا المبحث ستتناول الدراسة السمات الجمالية لدى الشاعر من حيث المستوى اللغوي، وتأثره بلغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وعلى المستوى الفني سيتناول هذا المبحث الأساليب الإنشائية لموضوع الدراسة، والوقوف عند جماليات الصورة الفنية وتشكيلاتها عند الشاعر.

أ- المستوى اللغوي

من يقرأ في شعر سابق البربري سيجد أن الشاعر يميل إلى استخدام اللغة السهلة الواضحة السليمة من الخطأ واللحن دون تقعّر أو إغراب في الألفاظ، ومن أمثلة ذلك: ((قابر، مقبور، معروف، بر، تصحب، مقدور، مبرور، تجالس، تماشي، زائر، مزور، الود، اكْسَب، عمل، جميل، انظر، نفس، بديل، انتقد، الخليل، ...إلخ)). ومن قول الشاعر في استعمال اللغة السهلة:

يا نفْسُ كُلُّ قَابِرٍ مَقْبُورُ
ويَهْلَكُ الزائِرُ والمَزُورُ
والبرُّ مَعْروفٌ به المبْرورُ
وذُو الهَوَى يَسُوقُه الْمَقْدُورُ(64)

الشاعر هنا استعمل الألفاظ السهلة، ومنها: ((قابر، مقبور، زائر، مزور، معروف، البر، مبرور، يسوق، مقدور)) في وعظه الناس بالموت والقبور، فكل إنسان يقبر أخاه لا شكّ أنه سيصبح مقبورًا مثل صاحبه، ويهلك الكل سواءً أكان زائرًا أو مزورًا.

ونرى الشاعر يستعمل ألفاظ اللغة السهلة ((تصحب، السوء، انظر، تجالس، تماشي)) في نصيحته للإنسان بأن يختار الصديق الطّيّب، وليس قرين السوء، حيث يقول:

ولا تَصْحَبْ قَرِينَ السُّوءِ وانْظُرْ لِنَفْسِكَ مَنْ تُجَالسُ أوْ تُمَاشِي (65)

ويستعمل اللغة السهلة أيضا في قوله:

إنْ كُنتَ مُتَّخِذًا خَليلاً فَتَنَقَّ وانْتقدِ الخَلِيلاَ
مَنْ لمْ يكن لكَ مُنْصِفًا في الوُدِّ فابْغِ به بديلاَ
وعليْكَ نفْسَكَ فارْعَها واكسَبْ لهَا عَمَلاً جميلاَ(66)

لقد جاءت لغة الشاعر في هذه الأبيات سهلة واضحة لا تقعّر فيها ولا غرابة، ومن الألفاظ التي استعملها في التعبير عن تجربته في الصداقة: ((متخذًا، خليلا، تنق، انتقد، منصفا، الود، بديلا، نفسك، اكسب، عملا، جميلا)). ولعل السبب في اختيار الشاعر لهذه اللغة السهلة أنه كان في موقف الوعظ والنصح، فلم يسعفه الوقت في أن يختار الألفاظ الجزلة، أو يجيد في الصياغة، أو يتأنق في اختيار ألفاظه.

تأثر الشاعر بلغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

مما لا ريب فيه أننا لم نجد شاعرًا أو أديبًا إلاّ وقد تأثّر بلغة القرآن الكريم وبلاغته وفصاحته، وسحرهم أيضًا أسلوب سيد الخلق محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولا نكاد نجد شاعرًا زاهدًا إلّا وقد وجَدْتَ في أبياته أو قصائده تأثراً بهذا الكتاب العظيم أو بأحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم)، وذلك لشدّة ارتباطهما بموضوعات زهدهم.

ويعد سابق البربري واحداً من الشعراء الزهاد في العصر الأموي الذين تأثروا بالقرآن الكريم والحديث النبوي تأثّيرًا عميقا. لقد تأثر الشاعر بالقرآن كثيرا سواء في ألفاظه أو معانيه أو صوره. ومن تأثر الشاعر بألفاظ القرآن الكريم قوله في وصف يوم القيامة:

وبعدَ دُخُولِ القبرِ يا نفْسُ كربةٌ وهولٌ شديدٌ يُشِيبُ المُرْضِعينَ زَلاَزِلُهْ (67)

فقد استمدّ الشاعر من ألفاظ الذكر الحكيم ((المرضِعين، زلازله)) في قوله تعالى: ((يا أيُّها النـاسُ اتَّقُوا ربَّكُم إنَّ زَلْزلـةَ السـاعةِ شَـيْءٌ عظـيم * يـوْمَ تَرَوْنَهَـا تـذْهَلُ كُـلُّ مُرْضِـعَةٍ عَمَّـا أرْضَعتْ))(68).

ومن ألفاظ القرآن الكريم التعبير عن الخوف من الموت بالفرار، وقد استعمله الشاعر في قوله:

فَلا الإقامةَ تُنْجي النّفْسَ مِنْ تَلَفٍ ولا الفِرارُ مِنَ الأحداثِ يُنَجّيها(69)

لقد استمدّ الشاعر لفظة ((الفرار)) من القرآن الكريم في قوله تعالى: ((قُلْ لَنْ يَنْفَعُكُمْ الْفِرَارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المْوتِ أوْ القَتْلِ وإذًا لا تُمَتّعُون إلا قَلِيلاً))(70). فالشاعر هنا استعمل لفظة ((الفرار)) من الأعمال والأحداث المؤدية إلى الموت، بينما جاءت لفظة ((الفرار)) في القرآن من الموت أو القتل، وهذا يدلّ على أن الشاعر لم يقتبس من القرآن النصّ حرفيًّا، وقد

أكسب البيت الشعري إضاءة وإيضاحًا. وكذلك اقتبس الشاعر من بعض آي الذكر الحكيم جملا أو آيات كاملة، وهذا يدل على شدة تأثر الشاعر بالقرآن الكريم. ومن اقتباسه آية كاملة قوله:

ومِنْ جَهُولٍ مُكْثِرٌ مَالُهُ ذَلكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم (71)

فقد ستمدّ الشاعر في عجز البيت من قوله تعالى: ((والشّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتقَرٍّ لَهَا ذَلكَ تقْديرُ العَزِيزِ العَلِيم))(72). فالشاعر هنا كان اقتباسه في غير سياق الآية، ومع ذلك فقد منح هذا الاقتباس البيت الشعري إيضاحاً وتأثيرًا. ومن اقتباس الشاعر المعنى المستمد من آي الذكر الحكيم دعوته إلى الصبر على القضاء والقدر في قوله:

واصْبِرْ علَى القَدَرِ المَجْلُوبِ وارْضَ بِه وإنْ أتَاكَ بِمَا لا تَشْتَهِي القَدَرُ(73)

لقد اقتبس سابق هذا المعنى من قوله تعالى: ((واصْبِرْ على ما أصَابكَ إنَّ ذَلكَ من عزمِ الأُمور))(74). ولذا ينبغي للمسلم أن يصبر على قضاء الله وقدره عليه، وهذا من علامة الإيمان. ومن المعاني التي كررها الشاعر في شعره وعظه بالموت، وما بعده من أهوال يوم القيامة والحساب، حيث يقول مُذكِّرًا بحتميته على الناس جميعا ومُتَأثِّرًا بالمعاني القرآنية التي تجلّت فيها هذه الحقيقة التي غفل عنها كثير من الناس لانشغالهم بالفانية بدلاً عن الباقية، حيث يقول:

والمَوْتُ جِسْرٌ لِمَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمٍ إلى الأمُورِ التي تُخْشَى وتُنْتَظَرُ
مَنْ كَانَ فِي مَعْقِلٍ لِلْحِرْزِ أسْلَمَهُ أوْ كَانَ في خَمَرٍ لمْ يُنْجِهِ خَمَرُ(75)

نجد الشاعر في هذين البيتين مقتبسًا المعنى القرآني الذي يُعبّر عن أهوال يوم القيامة وشدّته، يقول تعالى: ((القَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ * ومَا أدْرَاكَ مَا القَارِعَة))(76)، وفي البيتين إشارة أيضًا إلى البعث، يقول تعالى: ((ونُفِخَ في الصُّورِ فإذَا هُمْ مِنَ الأجْدَاثِ إلى ربِّهِمْ ينْسِلُون))(77)، وفي البيتين إشارة أخرى إلى الميزان، يقول تعالى: ((ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وإنْ كانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتَيْنَا بِهَا وكَفَى بِنَا حَاسِبِين))(78). ولعلّ الشاعر أراد من استعماله لغة القرآن الكريم أن يعطي نصّه الشِّعريّ قوة التأثير في المتلقّي والسامع. وقد تأثر الشاعر أيضا **بلغة الحديث النبوي الشريف** تأثرًا عميقًا سواء من حيث اللفظ أو المعنى، ومن تأثّر الشاعر بألفاظ الحديث النبوي قوله:

قَدْ قِيلَ قَبْلِي في الكَلاَمِ الأَقْدَمِ إنِّي وَجَدْتُ العِلْمَ بِالتَّعلُّمِ (79)

فقد ضمنّ الشاعر عجز بيته الشعري من حديث النبي –صلى الله عليه وسلم– الذي يقول فيه: "مَنْ يُرِدِ اللهُ بِه خَيْرًا يُفقِّهْهُ، وإنّما العِلْمُ بالتَّعَلُّم"(80).

ويبدو أن الشاعر كان متأثرا بالحديث الشريف، فقد ضمّن نص الحديث دون تكلف منه، ومن تأثر الشاعر بلغة الحديث من حيث المعنى قوله:

أَمْوَالُنا لِذَوي المِيْرَاثِ نَجْمَعُها وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيْهَا (81)

يعظ الشاعر بأن المال الذي جمعه الإنسان في حياته الدنيا يتركه لورثته؛ لأن الإنسان عندما يموت لا يأخذ معه ماله إلاّ ما انفق منه، وأما ما يبقى فيكون من نصيب الورثة، ويبدو أنَّ الشاعر قد تأثّر بالحديث النبوي الشريف، فاقتبس من حديث النبي– صلى الله عليه وسلم– الذي يقول فيه: "يقولُ العبدُ مَالي ومَالي، وإنّما له مِنْ مَالِهِ ثَلاَثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أو لَبِسَ فَأَبْلَى، أوْ أَعْطى فَأَفْنَى، وما سوى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وتَارِكُهُ للنَّاس"(82)، ومما استمدّه الشاعر من معاني الحديث الشريف، قوله:

ولا تَكُ ذَا لونَيْن يُبْدي بشَاشَةً وفي صدْرِهِ ضَبٌّ مِنَ الغِلِّ كَامِنُ(83)

الشاعر هنا يحذّر من النفاق، وهو خُلُقٌ ذميمٌ حذّرنا الإسلام منه، فقد ذمّ القرآن الكريم في آيات كثيرة النفاق والمنافقين، وكذلك حذّر الرسول– صلى الله عليه وسلم– من المنافقين وبيَّن أن هؤلاء المنافقين يقابلون الناس بوجهين، وحذّر المؤمنين منهم، وقد استلهم الشاعر في بيته السابق من حديث النبي– صلى الله عليه وسلم– الذي يقول فيه "تَجِدُ من شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ القِيامةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الوَجْهَيْن، الذي يأتي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ"(84).

وخلاصة القول: إن الشاعر في استخدامه اللغة السهلة في شعره يعود إلى ثلاثة أسباب، هي:

الأول: يعود إلى أنه ثُقّفَ بالقرآن الكريم؛ لأن القرآن يتميز بالسهولة والوضوح، والبعد عن التعقيد، بحيث يستطيع مَنْ هو أقلّ ثقافة أن يفهم آياته ويدرك المقصود منها.

وثانيا: إنّ الشاعر كان زاهدًا يدعو إلى الزهد في الدنيا والتذكير بالآخرة وجهاد النفس والرقي بها إلى المستوى المثالي، ولا نعجب من استخدامه اللغة السهلة التي يخاطب بها الناس في وعظه لهم؛ ولذلك لا يحتاج إلى التقعّر أو استعمال الغريب من الألفاظ.

وأمّا السبب الثالث لشيوع اللغة السهلة في شعر سابق البربري أنه عاش في بيئة الشام، وهي بيئة حضارية؛ مما جعلت لغته سهلة؛ لأن للبيئة الحضارية أثرًا كبيرًا في تليين اللغة وتبسيطها.

ب– الأساليب الإنشائية:

تُعد الأساليب الإنشائية من الظواهر اللغوية البارزة لدى سابق البربري، ومن هذه الأساليب التي تردّدت كثيراً في شعره (الاستفهام، والنداء).

1-أسلوب الاستفهام:

الاستفهام هو طلب المخاطب معرفة شيء لم يكن يعرفه من قبل، وهذا الأسلوب يأتي حقيقياً ويأتي مجازياً، والأغراض البلاغية التي يخرج إليها أسلوب الاستفهام هي: الإنكار، والنفي، والتعجب، والتقرير، والتمني، ...(85).

ومن جمالية أسلوب الاستفهام التذكير بحتمية الموت والفناء المهيمن على البشر جميعا، قوله:

أَبَعْدَ آدَمَ تَرْجُونَ الْبَقَاءَ، وَهَلْ تَبْقَى فُرُوعٌ لِأَصْلٍ حِيْنَ يَنْقَعِرُ؟ (86)

الاستفهام جاء بالهمزة التي أدخلها الشاعر على الظرف (أبعد آدم ترجون البقاء؟)، وقد خرج هذا الاستفهام عن معناه الحقيقي، وهو البحث عن إجابة للسؤال إلى معنى آخر(مجازي) هو التوبيخ والاستنكار، فالشاعر هنا يستنكر لهذه الحال، ويوبّخ هؤلاء الغافلين المستغرقين في سكرة غفلتهم عن حقيقة أمرهم ومصيرهم، إذ لا مجال للأمل في الخلود في هذه الدنيا، وقد عرفوا فناء أبيهم آدم. ولعل جمال الاستفهام هنا يكمن من ترابط الهمزة الاستفهامية مع الظرف؛ مما أعطى الاستفهام حُسْنًا ومزيّةً، وزاد من قوة الإنكار والتوبيخ لهؤلاء الغافلين الذين يتشبثون بالحياة الفانية بعد أيقنوا بفناء فيها أصلهم. ولم يكتفِ الشاعر بالاستفهام الأول، بل أردفه باستفهام آخر بـ(هل)، (وهل تبقى فروع لأصل حين ينقعر؟) وقد خرج الاستفهام عن معناه إلى معنى بلاغي هو (الإنكار والنفي)، فالشاعر هنا يؤكد على الحقيقة التي أنكرها ووبّخ عليها في صدر البيت. ولعل الشاعر يهدف من وراء هذا الاستفهام إلى تعرية فكرة الخلود في الدنيا عند هؤلاء الغافلين بقوله: هل رأيتم فروعا تبقى بعد فناء الأصل؟ والجواب يأتي بالنفي. ويقول مستخدما الاستفهام بـ(هل):

لايَنْفَعُ الذِّكْرُ قَلْبًا قاسِيًا أَبَدًا وهلْ يلينُ لقَوْلِ الواعِظِ الحجَرُ؟(87)

يُقَرّر الشاعر في صدر البيت أن الذّكْر لا يُؤثِّر إلا في القلوب الرقيقة، ولا يكون نافعًا للقلوب القاسية التي أصبحت كالحجارة، فلا تأثير فيها للذّكْر، وقد جاء عجز البيت مصدّرا بالاستفهام بـ(هل)، وقد خرج الاستفهام عن معناه إلى معنى مجازي هو(الإنكار والنفي).

وقد أتى الشاعر بهذه الجملة الاستفهامية (هل يلين لقول الواعظ الحجر؟) للاستدلال على الحقيقة التي قرّرها بأنّ الذِّكْر لا يُؤثِّر في القلوب القاسية، وأتى بالاستفهام ليؤكد هذه الحقيقة التي قالها في صدر البيت.

2-أسلوب النداء:

النداء أسلوب من أساليب الإنشاء الطلبي، ويقوم النداء على طلب الإقبال بحرف نائب مناب أدعو لفظاً وتقديراً. ويخرج أسلوب النداء من معناه الحقيقي لإفادة معانٍ بلاغية تفهم من سياق الكلام، ولذا فإنّ: "أدبية النداء تأتي عند تخلّصه من أصل المعنى ليولد إنتاجية بديلة سواء كان التوليد على مستوى السياق أو على مستوى الصيغة"(88).

ومن الأغراض البلاغية التي يخرج إليها النداء: التمني والاستغاثة والندبة، والإغراء، والتحذير، والتعجب، والاختصاص، والتنبيه، والتحسر.

ومما لا شكّ فيه أن سابق البربري كان يركّز في أسلوب النداء على المعاني الدينية المتصلة بالموت والقبر والمتصلة بالدنيا والغافلين والمستغرقين في لهوها، يقول الشاعر في نداء النفس:

وبعْدَ دُخولِ القَبْرِ . يا نَفْسُ . كُرْبَةٌ وهَولٌ يُشِيبُ المُرضعِين زَلازِلُهْ(95)

استخدم الشاعر أسلوب النداء (يا نفس) الذي خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى بلاغي هو(التحذير والتنبيه). وقد نادى الشاعر النفس القريبة منادا ة البعيد بأداة النداء (يا) ليحذّرها وينبهها مما هي عليه سادرة وغافلة في لهوها، بل هو يناديها بما ينادي البعيد ليحضرها، ويوقضها من سباتها، ولتصحو من رقادها، وتطيل التأمل في المعنى. ومما يُلاحظ أنّ النفس هنا جاءت (نكرة)، وليست مضافة إلى ياء المتكلِّم حتى لا يفيد الخصوص، وإنما الشاعر يريد التعميم بحيث يعمّ خطابه كل نفس إنسانية. وأسلوب الشاعر في نداء النفس بني على الصورة الخيالية بقصد أن يوقضها من الغفلة، وأن يجعل الخوف فيها لتعدّ العدّة لهذا الموقف العظيم من كربة وهول شديدين يشيب المرْضعِين. ويقول الشاعر في منادا ة عامر الدنيا الذي انشغل بها وأحبها وغفل عن حقيقة مصيره:

يا عَامِرَ الدُّنْيَا أتعْمُرُ مَنْزِلاً لمْ يبْقَ فِيهِ مَعَ المَنِيَّةِ سَاكِنُ؟ (96)

ينادي الشاعر المخاطب (عامر الدنيا) بهذا النداء (يا عامر الدنيا) للبعيد لينبّه كل إنسان غافل استهواه حبّ الدنيا واللهو فيها والانغماس في متاعها، مما أنساه حقيقة مصيره الذي سيعود إليه، وقد أردف الشاعر هذا النداء بأسلوب إنشائي آخر هو الاستفهام (أتعمر منزلاً لم يبق فيه مع المنيّة ساكن؟) الذي خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي هو(التوبيخ والتنبيه) لكل غافل عن حقيقة مصيره، فهو يُعمّر المنزل مع علمه ويقينه بأنه منتقل منه وراحل عنه.

ج- الصورة الفنيّة:

تعدّ الصورة أهم أداة يقوم عليها الشعر، وهي الوجه الجمالي للشعور الذي يدغدغ قلب الشاعر أو الفكرة التي تعتمل في ذهنه، وتقوم بتجسيدها فنياً عندما تصوغ رؤية الشاعر، وتبرزها وتقدمها تقديماً يترك أثراً في المتلقي ويحقّق التواصل الإبداعي، "فالصورة في الشعر في الشعر هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظما الشاعر في سياق القصيدة مستخدمًا طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالات والتراكيب ..."(97).

1-الصورة التشبيهية:

استعمل الشاعر التشبيه كثيرًا في شعره، وقد جاءت معظم تشبيهاته تمثيلية مستمدة من البيئة الطبيعية، وقد جمع في تشبيهاته بين الأصالة والتقليد والتجديد. ومن تشبيهاته التمثيلية قوله:

وقَدْ خَتَلَتْنا باللّطيفِ مِنَ الْهَوى كَمَا يَخْتِلُ الوحشيَّ بالشَّيْءِ خَاتِلُهْ (98)

ابتدع الشاعر في هذه الصورة التشبيهية التمثيلية، فقد قارن الشاعر بين حال الإنسان وقد غافلته الدنيا بمتاعها، وخدعته بلهوها عن حقيقة مصيره، حتى غرق في طلب زينتها وانغمس في ملذاتها، وركن إليها، فطوته في أعطاف فتنتها وإغوائها إلى أن فاجأه الموت(هادم اللذات) بصورة الوحش الذي لا يأمن على حياته من الصياد ويريد أن يهرب منه مسرعا. ولكن الصياد يعمل على خداعه ومخاتلته حتى يطمئن الوحش ويأنس له، فإذا ما اطمأنَّ أخذه الصياد على حين غفلة. ولعل جمال هذه الصورة التمثلية يظهر بجلاء تام من خلال هاتين الصورتين المتباعدتين، فحطّم الفوارق بينهما، حتى لنرى الصورة العقلية (خداع الدنيا وفتنتها بالإنسان حتى ينسى مصيره) متعانقة مع الصورة الحسيّة التي رسمها بكلماته (صورة الصياد يخاتل الوحش ويخدعه حتى يصيده). ولهذا فقد أبدع الشاعر في أن يوثّق العلاقة بين صورتيه، وأن يحدث خيطًا معنويًّا بينهما، بل نقول: إنّ الشاعر صاغ الفكرة العقلية النظرية في صورة تمثيلية محسوسة؛ مما ترك أثرًا قويا في النفس. ومن تشبيهاته البليغة قوله:

والرُّشْدُ نَافِلةٌ تُهْدَى لِصَاحِبِها والغَيُّ يُكْرَهُ مِنْه الوِرْدُ والصَّدَرُ(99)

الشاعر هنا يوضح بجلاء تام عن صورتين مختلفتين، فالصورة الأولى جاءت عن طريق التشبيه البليغ (الرشد نافلة تُهْدَى)، بحيث جعل الرشد منحة ربانية يهبها الله لصاحبها، والأخرى جاءت عن طريق الاستعارة المكنية (الغيُّ يُكْرَه منه)، إذْ جعل الغي والضلال شيئا مبهما يتحرك صدورًا وورودًا، فيبعث في النفوس الملل. ونستطيع القول: إنّ الشاعر في هذه

الصورة البليغة يريد أن يخبرنا عن فضيلة التماس الحقّ والهدى، ويؤكد على أن الهداية إلى الحق منّةً وهبةً من الله على عباده، وأن الغيّ والضلال عن الحقَ مذموم بكل صوره.

2-الصورة الاستعارية

تعدّ الاستعارة الوجه الجمالي للشعور الذي يدغدغ قلب الشاعر، أو الفكرة التي تعتمل في ذهنه، وتقوم بتشخيصها أو تجسيدها فنّياً، فتصوغ رؤية الشاعر وتبرزها، بالإضافة إلى أنها قادرة على استيعاب التجارب والخبرات والهموم الإنسانية، والتعبير عنها تعبيراً مؤثراً، إذْ تصوغ الواقع صياغة جَماليةً، وتشكّله تشكيلاً فنّياً. ومن الاستعارات الشعرية التي كثرت في شعر سابق (الاستعارة المكنية)، ومن ذلك قوله:

فَوَيْحِي مِنَ المَوْتِ الذّي هُوَ واقِعٌ وللمَوْتِ بَابٌ أنْتَ لا بدَّ داخِلُهْ(100)

نجد سابق البربري في عجز البيت يصور الموت في صورة بناء، وله باب يتحتّم على البشر الدخول منه. إنه يشبه الموت ببناء في صورة مجسدة للعيان، ثم يحذف المشبه به، ويبقي من لوازمه (الباب) على سبيل الاستعارة المكنية. ولعل جمال الصورة الاستعارية هنا يأتي من تصويرها لإحساس الشاعر فيما يتعلق بالموت الذي يراه بناءً عظيمًا شامخًا يتحدّى البشر ويرغمهم الدخول من بابه.

وبهذا ينقل الموت من المجال المعنويّ إلى المجال الحسيّ المشاهد ليؤكّد لنا حقيقة الموت ووقوعه على البشر بحيث لا يدع مجالا للتشكيك فيه بهذه الصورة. ويقول مستخدما الاستعارة المكنية:

تِلْكَ المَدائِنُ بالآفَاقِ خَاليةً أمْسَتْ خَلَاءً، وذَاقَ المَوْتَ بَانِيهَا (101)

لقد أبدع الشاعر في استخدامه الصورة الاستعارية (وذاق الموت بانيها)، فقد صور الموت بشيء من المطعومات التي يتذوقها الإنسان، وحذف المشبه به وأبقى شيئًا من لوازمه وهو (الإذاقة)، وقد جاء جمال هذه الاستعارة المكنية من بيان شدة الإصابة في الموت، فأصبح الموت مشخَّصا ومجسّدًا ومحسوسًا يُطْعم ويُذَاق. ولعلّ الشاعر قد اختار لفظة (ذاق) بعناية فائقة بدلاً عن لفظة (طعم)، وهذا إيحاء إلى جهل الإنسان بحقيقة الموت، فهو يذوقه، فالمدائن التي كانت عامرة بالبنيان والحياة والحركة يسودها الخراب ويعشّش فيها الموت. وبتعبير أدق: إن الشاعر يعظ بهذه الصورة الفنية الإنسان وينبّهه إلى عدم الاغترار بقوته ومجده، فقد أهلك الله الأقوام والأمم السابقة ذات القوة والسلطان، فلا دوام لحال من الأحوال في هذه الدنيا الفانية.

ومن الصور الاستعارية الجميلة قوله:

فكُنْ دافِئًا للشَّرِّ بالخَيْرِ تَسْتَرِحْ مِنَ الهَمِّ، إنَّ الخَيرَ للشَّرِّ دافِئُ(102)

استخدم الشاعر الصورة الاستعارية (كُنْ دافئًا للشرّ بالخير) في وعظه ونصحه للإنسان بالابتعاد عن الشر. ومن جمال هذه الصورة أن الشاعر صوَّر لنا الشرّ أمام أعيننا بالجثّة الهامدة التي تدفن، واستعمل الشاعر لفظة (الدفن) مع الشر، وهو للأشياء الحسيَّة بدلاً عن الستر والإخفاء، ليؤكد على قيمة السلام ويفصح عن حقيقة روح الشاعر التي تدعو إلى نبذ الشر، وتدعو إلى السلام والأمن، فإثارة الشر ونبشه كأنه نبش لقبور الموتى.

الخاتمة

في نهاية هذا الطواف في شعر (الزهد) عند سابق البربري، **توصل هذا البحث** إلى النتائج الآتية:

- إن سابق البربري تميّزَ بفنٍّ شعريّ واحد هو الزهد، وفاق نظراءه من شعراء الزهد في العصر الأموي في هذا الفن.
- كشف البحث عن أثر القرآن الكريم والسنة النبوية وحياة الصحابة في شعر الزهد عند سابق.
- بيّن البحث بجلاء تام عن مفهوم الزهد من حيث اللغة والاصطلاح، وأفصح بجلاء عن تجليات التجربة الزهدية عند سابق البربري.
- كشف هذا البحث عن الأسباب والبواعث التي وقفت وراء زهد الشاعر، ممثلة في نشأة الشاعر الدينية وثقافته الواسعة في علوم القرآن والسنة النبوية.
- أشار البحث إلى مصادر الزهد عند الشاعر من خلال رؤية الشاعر لمضامين القضايا التي تناولها في تجربته الزهدية، ومنها: (ذمّ الدنيا الفانية، وقضية الموت، والحضّ على القيم الخلقية، وذمّ جمع المال واكتنازه، والوعظ).
- حرص البحث على إبراز السمات الجمالية في شعره الزهدي في إطار (استعمال اللغة، وأثر لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عليها، والبحث في السمات الجمالية للصورة الفنية المتمثلة في (التشبيه والاستعارة) والبحث في السمات الجمالية في الأساليب الإنشائية التي استعملها الشاعر).

الهوامش

1- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994، ج196/3وينظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد العزيز المطر، مطبعة حكومة الكويت،1970م، ج50/2

2- المصدر نفسه مادة (زهد).

3- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، أخرجه مجموعة من الباحثين، مصر، مطبعة مصر، 1960، مادة:(زهد).

4- سعاد الحكم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1981، ص552.

5- أبو الحسن علي بن محمد الشريف، التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد/العراق، ص67.

6- محمد شيخاني، التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين، دار قتيبة، ط1995،2م، ص155.

7- محمد فؤاد عبد الباقي، سنن ابن ماجه، دار إحياء التراث العربي، بيروت مجلد(2)، ص1773.

8- رافع أسعد عبد الحليم، شعر الزهد والتصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رسالة (ماجستير)، جامعة بغداد، كلية الآداب،1975م، ص10.

9- القرآن الكريم، سورة الحديد، الآية 20.

10- القرآن الكريم، سورة المنافقون، الآية 9.

11- القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية 46.

12- يحيى بن شرف الدين النووي، شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا/بيروت، ط1982،2م، ص105-107.

13- القرآن الكريم، سورة القلم، الآية 4.

14- مجاهد مصطفى بهجت، التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلسلة الكتب الحديثة ط1، 1982، ص150.

15- ينظر ابن سعد، الطبقات الكبرى(230هـ)، مطبعة التحرير، مصر، (د.ت) ج152/3.

16- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني(453)، زهر الآداب وثمرة الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، 1953م، ج1/ص70.

17- ابن سعد، الطبقات الكبرى،36/3.
18- أبو نعيم (الحافظ أحمد بن عبد الله الأصبهاني)، حلية الأولياء وطبقة الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت/لبنان، ط3، 1980، ج84/1.
19- أبو إسحاق الحصري، زهرة الآداب، ج78/1 وما بعدها.
20- عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق: عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، ط1، 1991، ص173.
21- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 143.
22- القرآن الكريم، سورة الليل الآية 2.
23- ينظر: أيمن حمدي، قاموس المصطلح الصوفي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000م، ص49.
24- جان برتيملي، بحث في علم الجمال، ترجمة: أنور عبد العزيز، مراجعة نظمي لوقا، دارنهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص100-101.
25- ستيفين هارولد سبندر(ت1995)، **صناعة القصيدة**، لندن، 1955، ص46-52.
26- ابن المعتز: طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط4، دار المعارف، مصر، د.ت، ص367.
27- ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن عساكر الشافعي)، تاريخ دمشق، مطبعة روضة الشام، دمشق، ج39/6.
28- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة السيد يعقوب بكر، ورمضان التواب، دار المعارف المصرية، بمصر، 1983م، 248/1.
29- شعر سابق البربري، جمعه وحققه: بدر ضيف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004م، ص39-48.
30- ينظر: السمعاني (عبد الكريم بن محمد بن المنصور)، الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد/العراق، 1970، ص113.
31- ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج39/6 وما بعدها.
32- عز الدين بن الأثير الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد/العراق، ج132/1.
33- ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج39/6.

34- سامي العاني، معجم ألقاب الشعراء، مكتبة الفلاح للطباعة والنشر، دبي/الإمارات، ط1، 1982، ص36.

35- عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب عاش في الشام، مطبوعات مجلة اللغة العربية بدمشق، ص3 وما بعدها.

36- ابن عساكر، ج39/6 وما بعدها.

37- ينظر: أبو نعيم (الحافظ أحمد بن عبد الله الأصبهاني)، ج318/5.

38- ينظر: ابن حيان (أبو حاتم محمد بن حيان، الثقات، حيدر أباد/الهند، ج433/6. ينظر: أبو علي محمد عبد الرحمن القشيري الحراني، تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والفقهاء والمحدثين، تحقيق طاهر النعساني، (د.ت) ص123-125.

39- ينظر: المصدر نفسه، ج433/6، وينظر: أبو علي محمد عبد الرحمن القشيري، تاريخ الرقة ص123 وما بعدها.

40- ينظر: أبو نعيم (الحافظ أحمد بن عبد الله الأصبهاني)، حلية الأولياء، ج329/5-336.

41- ينظر: ابن حيان، تاريخ الرقة، ص 124، وينظر عبد الله كنون، سابق البربري، ص24.

42- شعر سابق البربري، ص110.

43- نفسه، ص109،110.

44- نفسه، ص125.

45- نفسه، ص114.

46- نفسه، ص124.

47- القرآن الكريم، سورة الحج الآية (1).

48- القرآن الكريم، سورة المزمل، الآية(17).

49- القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية (31).

50- القرآن الكريم، سورة النجم الآيات من (38-41).

51- شعر سابق البربري، ص118.

52- القرآن الكريم، سورة الجمعة، الآية(8).

53- شعر سابق البربري، ص101.

54- نفسه، ص131.
55- نفسه، ص119.
56- نفسه، ص109.
57- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية (197).
58- شعر سابق البربري، ص109.
59- نفسه، ص135.
60- نفسه، ص131.
61- نفسه، ص109.
62- نفسه، ص136.
63- نفسه، ص136.
64- نفسه، ص107.
65- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية (155).
66- شعر سابق البربري، ص104.
67- نفسه، ص123.
68- نفسه، ص 124.
69- نفسه، ص133.
70- نفس، ص114.
71- نفسه، ص126.
72- نفسه، ص123.
73- نفسه، ص124.
74- القرآن الكريم، سورة الحج، الآية 1،2.
75- شعر سابق البربري، ص136.
76- القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآية 16.
77- شعر سابق البربري، ص126.
78- القرآن الكريم سورة يس، آية 38. وسورة الأنعام، آية 96.
79- شعر سابق البربري، ص109.
80- القرآن الكريم، سورة لقمان آية 17.
81- شعر سابق البربري، ص109.

82- القرآن الكريم، سورة القارعة، آية 1،2.
83- القرآن الكريم، سورة يس، آية 51.
84- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، آية 47.
85- شعر سابق البربري، ص129.
86- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري (كتاب العلم 3، حديث رقم10)، دار ابن كثير في دمشق، وبيروت، ط1، 2002 م، ص29.
87- شعر سابق البربري، ص135.
88- احمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ج368/2.
89- شعر سابق البربري، ص131.
90- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، (كتاب الأدب78، حديث رقم52)، ص1517.
91- ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، عمان/الأردن، ط(1)، 1985م، ج135/1 وما بعدها.
92- شعر سابق البربري، ص110.
93- نفسه، ص109.
94- فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ج150/1.
95- شعر سابق البربري، ص124.
96- نفسه، ص133.
97- محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1990،1م، ص10
98- شعر سابق البربري، ص135.
99- نفسه، ص109.
100- نفسه، ص124.
101- نفسه، ص136.
102- نفسه، ص131.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمرة الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية.
- أبو الحسن علي بن محمد الشريف، التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد/العراق.
- أبو علي محمد عبد الرحمن القشيري الحراني، تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والفقهاء والمحدثين، تحقيق طاهر النعساني،(د.ت).
- أبو نعيم (الحافظ أحمد بن عبد الله الأصبهاني)، حلية الأولياء وطبقة الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت/لبنان، ط3،1980م.
- احمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- ابن حيان (أبو حاتم محمد بن حيان)، الثقات، حيدر أباد/الهند.
- ابن سعد، الطبقات الكبرى مطبعة التحرير، مصر، (د.ت).
- ابن عساكر(أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن عساكر الشافعي)، تاريخ دمشق، مطبعة روضة الشام، دمشق.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994.
- ابن المعتز: طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار فراج، ط4، دار المعارف، مصر.
- أيمن حمدي، قاموس المصطلح الصوفي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري(كتاب العلم 3)، دار ابن كثير في دمشق، وبيروت، ط1، 2002م.
- جان برتيملي، بحث في علم الجمال، ترجمة: أنور عبد العزيز، مراجعة نظمي لوقا، دارنهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- رافع أسعد عبد الحليم، شعر الزهد والتصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رسالة(ماجستير)، جامعة بغداد– كلية الآداب ،1975م.
- الزبيدي، تاج العروس، تحقيق: عبد العزيز المطر، مطبعة حكومة الكويت،1970م.
- ستيفين هارولد سبندر(ت1995)، **صناعة القصيدة**، لندن، 1955م.

- سعاد الحكم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1981.
- سامي العاني، معجم ألقاب الشعراء، مكتبة الفلاح للطباعة والنشر، دبي/الإمارات، ط1، 1982.
- السمعاني (عبد الكريم بن محمد بن المنصور)، الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد/العراق،1970م.
- شعر سابق البربري، جمعه وحققه: بدر ضيف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004م.
- عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق: عبدالعال شاهين، دار المنار، القاهرة، ط1.
- عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب عاش في الشام، مطبوعات مجلة اللغة العربية بدمشق.
- عز الدين بن الأثير الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد/العراق.
- فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، عمان/الأردن، ط1، 1985م.
- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة السيد يعقوب بكر، ود. رمضان التواب، دار المعارف المصرية، بمصر، 1983م.
- مجاهد مصطفى بهجت، التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلسلة الكتب الحديثة ط1، 1982.
- محمد شيخاني، التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين، دار قتيبة، ط2، 1995م.
- محمد فؤاد عبد الباقي، سنن ابن ماجه، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، أخرجه مجموعة من الباحثين، مصر، مطبعة مصر، 1960، مادة: (زهد).
- يحيى بن شرف الدين النووي، شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا/بيروت، ط2، 1982م.